سوانح (١)

ما دخل الربح في امر من امور العقل الا افسده ، ولعلّ قدماء الوراقين بالمكاسب افسد الكتب ، فتوهموا ومنهم الأميون ، انهم لا يربحون من النساخة الا اذا قتروا في الانفاق عليها ، فصار امر الاستنساخ الى العامة ومن في حكمهم من الجهلاء ، وبذلك كثر الغلط والسقط حتى كان اكثر الناسخين من المتأخرين لا يدركون معنىً لما ينسخون فجنوا على العلم أعظم جناية .

التعقيد لا تستسيغه جميع الأذواق ، تبدلت اساليب الكتابة العربية مرات في الاسلام ، وما بقي من اساليبها في الآخر الا الأسلوب البسيط الذي يقبله ذوق كل قارئ .

أخرج هذا العصر ثلة من النقاد نقدوا ما عثروا عليه من الأغلاط الشائنة في بعض ما طبع من اسفارنا القديمة ، فغدونا بفضلهم نقرأ الجيد والمعتمد ، وكنا الى امس نقرأ السليم مخلوطاً بالسقيم . انتقل العلم من النساخ حملة راية التصحيف والتحريف الى ايدي الخواص فأدخلوه في نظام من التحقيق يفاخر به . وأعظمْ بها من مرحلة قطعناها .

في باب التأليف كانت القرون الأخيرة في الأقطار العربية قرون الجمّاعين والمقتبسين ، وان شئت قل السارقين والمنتحلين . وعصرنا هذا عصر المترجمين والناقلين ، وما كنا في الأول والآخر الا عالة على غيرنا .

ربما لم يصدر في مئة سنة اكثر من مئة تأليف عربي للمحدثين يحمل جدة وطرافة ، ولا يدخل في هذا العدد ما طبع من كتب الأسلاف .

---

(١) مقتبسة من الجزء الرابع من مذكرات الأستاذ محمد كرد علي (والجزء معد للطبع).

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ما زاد عدد من درسوا العلوم العالية في مصر والشام عن حاجة البلدين الى الآن ، وانما فضل عن حاجة حكوماتهما ، وذلك لأن غاية معظم الدارسين من دروسهم الدخول في خدمة الدولة وهذه لا تتسع دواوينها لكل طالب بمشق التوظف فيها ، ولا تتسع موازنة هاتين الدولتين لاعطاء كل واحد منهم ما يشتهي .

لو بذل ما صرف على التعليم العالي منذ نصف قرن في القضاء على الأمية في مصر والشام لزال منهما أثرها ، ولكن كان القطران بعوزهما رجال الأعمال التي لا يحسن القيام بها الا ارباب الدراسات العالية .

بقليل من المعارف بثتها المدارس في عقول الناشئة اصبح الصبي يدرك ان المهندس غير النحات ، والمزين غير طبيب الأسنان ، والنجار غير الحداد ، وكان الشخص الواحد في الزمن السابق يتعاطى عدة صنائع .

شهدت الفلاحين وعامة المدن بالأمس يفرون من مراجعة المتطببين ويكتفون بوصفات العجائز وعقاقير الدجالين ، وشهدتهم اليوم يهرعون في حالة مرضهم الى الطبيب الاخصائي بقصدونه من اول الأمر . ظاهرة غريبة تدل على ارتقاء الأفكار .

قال لي احدهم انه شاهد معظم ركاب السيارات العظيمة التي تروح وتغدو بين دمشق ومرج غوطتها ، وفي يد كل واحد منهم جريدة او مجلة يقرؤها بشوق ، وذلك عند عودتهم مساء الى قراهم ، وقص عليّ احدهم انه شاهد في السيارة العامة التي تختلف الى بعض قرى الغوطة الوسطى امرأتين تبتاع كل منهما جريدة فسأل احداهما عن سبب شرائها لها فقالت له والغبطة بادية عليها : ان ابنها يقرأ ، وهو يقرؤها لها ويشرح لأمه ما يغمض من معناها . وهاتان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الفلاحتان من قرية اشتهر أهلها بالجهل والبخل ، وهذا ايضاً مما يعد في باب الارتقاء الحديث .

في الزمن الذي يكتب فيه لتاريخنا ان يدرس تدريساً صحيحاً في المدارس الأولى والوسطى والعليا تقوى الوطنية العربية اضعاف ما هي اليوم .

قال بعضهم : هنيئاً لأمة ليس لها تاريخ ، والأولى ان يقال : هنيئاً لأمة كان تاريخها طويلاً ومشرفاً كتاريخ العرب .

اخذ المسلمون لأول امرهم من العلوم المادية ما كان لهم منه عون على القيام بدعوتهم ، حتى اذا تم لهم ما طمحوا اليه من التوسع في الملك فترت الهمة في العلوم ودامت العناية بالدين سائرة سيرها العادي ، ثم قوي السواد الأعظم وهم أصحاب الدين على الأقلية وهم رجال العلم فكان من ذلك رجوع الأمة القهقرى .

اذا وضعت جامعة الدول العربية منذ اليوم اساس التعليم بما يلائم كل قطر ، ثم سيرته في طريق الوحدة تتشاكل الأقطار العربية بعد جيلين في تفكيرها وحضارتها .

في العهد الأخير انصرفت همم أساتذة جامعات مصر الى نشر بعض كتب قدماء الفلاسفة والمتصوفة ، وكانت النفوس تتشوف للوقوف عليها ويتخيلون ان فيها أسراراً لو ظهرت لكشفت من نواميس الطبيعة ما تتقدم به الانسانية ، تصفي النفوس من كثافاتها ، وتنجي البشر من القتل والزور والسرقة والكذب والظلم . ولما ظهرت هذه الأسفار في حلتها الجديدة من التحقيق والعناية تبين انها نافهة الا من العبث الذي أحب به عشاق الغرائب والمولعون بالمجهولات على الأيام ، فضاعت فيها أعمارهم وأضاعوا اعمار من اشتغلوا بها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

نشأت الدعوة الى الاسلام دينية محضة ثم ظهر على الأيام ان من الصعب انتشاره ان لم تدعم الدعوة الدينية بدعوة سياسية ، والدين محتاج أبداً الى الدنيا .

لو كان من حرموا التاريخ يتدبرون القرآن لأدركوا ان ما جاء فيه من أخبار الماضين هو التاريخ بعينه مقروناً الى فلسفته والتعليق عليه .

اذا درس المسلم القرآن حق دراسته لا يحتاج الا الى قليل من كلام العرب ليعد في البلغاء الفصحاء .

من ادعوا ان القرآن يحمل في دفتيه جميع العلوم لا يدركون انهم جعلوا منه بهذا الوصف مختصراً في دروس الأشياء ، وما القرآن الا كتاب حكمة خلق أمة تصلح للمعاش والمعاد ، وكفى بذلك اعظاماً لشأنه .

اذا لم يحفظ الفقيه القرآن من أين له ان يعرف الاسلام وبأي أداة يقضي ويفتي ؟

السر في ان الشرقي يبالغ بحضارة الغربي والغربي يغالي بانحطاط الشرقي ، كون كل فريق لا يعرف ما عند الفريق الآخر على حقيقته ، ولو استبطن الأول ما عند الثاني لأنصف كل منهما صاحبه في حكمه عليه .

من طبع الغربي ان يهتم لكل صغير وكبير ، ومن طبع الشرقي اهمال الأمر الصغير ، هذا والصغير اصل في الكبير .

كان من انحطاط جزيرة العرب حجة لمن يزعمون ان في تعاليم الاسلام ما يحول دون نهوض أهله ، لقد أخطأوا فالأمر على غير ما توهموا ؛ السبب سياسي اجتماعي والدين بريء من هذه التهمة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لا ينجي المسلمين مما يرمون به من الانحطاط الا ان يرجعوا في دراسة دينهم الى أصوله على ما كان يدرس في القرون الأولى ، وان يتعلموا علوم الحضارة كما تعلم في جامعات الغرب لعهدنا .

صفقت لما حدثني من أثق به من ان عدد الطلاب من الحجازيين والنجديين الذين يدرسون العلوم بنفقة حكومتهم في جامعات اميركا وانكلترا اصبح عظيماً يباهى به . وهؤلاء الطلاب هم الذين سيتولون في المستقبل القريب تمدين بلادهم على نحو ما أنشأت الشام والعراق تتمدن ، وسيثبتون للعالم ان العربي الذي عاش في الجهل قروناً سيبدل بالعلم سيره وسيرته ، فيصبح بالدرس عربياً شرقياً بروحه ، غربياً متحضراً بتفكيره .

يظهر ان الشرقي يعترف بفضل الغربي عليه ، بما فتح له من أساليب التوسع في العلوم أكثر مما يعترف الغربي بما اخذه اجداده عن الشرق ، وما انتفعوا به من علوم العرب وحضارتهم .

من افضل حسنات المدنية الحديثة جعلها من علماء الأرض على اختلاف الجنس واللغة والدين ابناء أسرة واحدة .

بقدر ما تشهد في المدنية الحديثة ما يبهرك من لطف وذوق تقع فيها على ما لا يطاق من عنف وعسف . المظلومون فيها اكثر من المرحومين ، والمتمتعون أقل من المحرومين .

لو كان للعنصر الشأن الأول في الاسلام ما استولى الديلمي والفارسي والتتري والتركي والكردي والبربري على اقطار كان معظم سكانها من العرب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

غاية ما يتطلبه المغلوب من الغالب ألا يظلمه ولا يذله ، ولا يظهر الاسلام وهو من ألد أعدائه .

لو تأصل الغرام بالتمثيل عند العرب تأصله عند الغربيين لقربت مدنيتنا من المدنية الغربية ، وكان مجتمعنا أرقى مما هو الآن .

أتى الدهر على حضارات عظيمة فمحاها ، وقضى على علوم كان البشر يتناغون في دراستها كعلم النجوم والأزياج والجفر والسحر ، ولعل الأيام تبطل علوماً هي اليوم موضع العناية الشديدة عند الدارسين من الشرقيين والغربيين .

ليس ببعد اليوم الذي يبقى فيه علم التصوف وعلم الحديث مكتوبين في الكتب لا يرجع اليهما الا عندما يراد الوقوف على تاريخ الفكر الاسلامي .

لو قدر ضياع ما كتبه مؤلفو العرب وشعراؤهم في عصور الانحطاط اي منذ القرن التاسع فنازلاً ما خسر العلم العربي شيئاً يذكر .

لو قدر للعرب ان يجتمعوا تحت لواء واحد ما انسلخ القرن الحادي والعشرون الا وقد يبلغ عددهم حوالي مئتي مليون ، بمدنية ليست دون أرقى مدنيات العالم .

ما اكثر متناقضات هذه المدنية : رحمة ما بعدها رحمة ، وقسوة لا يتصور العقل أشد منها .

أصبح الإنسان العادي لعهدنا يعرف من امور الصحة وبسائط علم الطب ما كان أطباء القرن الماضي لا يحسنون مثله ، وغدت ربة البيت المعنية بأولادها تحسن ، لكثرة ما قرأت وسمعت ، من وصايا الأطباء ، ما لا ذكر لأكثره في كتب القدماء .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

تدارك بعض الأسر القديمة بيوتهم من الانقراض بالمسارعة الى تعليم أولادهم ، كأنهم أدركوا ان حكم الجاهل حكم الميت ، والأسرة لا تدوم بيت لا ينسل .

ما أكثر من لا يعرف معنى الكلام الذي ينطق به ، ومن لا يفهم كلام غيره اذا ألقي اليه .

ثق بأن من بعض دواعي انحطاط المسلمين خروجهم في الحجاب عن هدي الشرع وسنة قدماء العرب ، وأخذهم بمصطلح الأعاجم المشارقة .

كانوا يقولون لا تخف الا من صاحب الكتاب الواحد لإحكامه غالباً كل مسائله ، ولا يكتفي طالب العلم في عصرنا من الكتب بعشرات المجلدات ، على حين لا يستحضر في ذهنه جزءاً مما حوت . ولهذا عمد الغربيون الى الاستكثار من الجزازات والفهارس للرجوع اليها عند الحاجة حتى كاد العلم ينقلب الى جزازات وفهارس .

المتوسطون في علمهم وقرائحهم اكثر من تخرج المدارس في أيامنا ؛ المتوسط يسد بعض الحاجة والمتفوق يسد كل حاجة .

كان اكثر من سمعتهم يخطبون في الملإ اقرب الى الركاكة والفهاهة ، ولطالما اشمأزت نفسي من سماع كلام المرتجلين منهم ، وعتبت على أرباب المدارك لتقصيرهم في ارشاد من يندسون في جماعة هم غرباء عنهم . الخطابة كالشعر والموسيقى والتصوير لا تفعل في النفوس ان لم يرزق صاحبها استعداداً فطرياً يكمله الدرس والاشتغال .

عهدت رجالاً برعوا في علوم كثيرة ينافي بعضها بعضاً . شاهدت كيماويا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يبرع في الأدب ، وطبيباً شاعراً ، ورياضياً ناثراً . الذكاء البشري لا حد له يقف عنده .

الصحف المعتدلة اللهجة اقرب الى الانتفاع بما تكتب من صحف الأحزاب والمهوسين بالوطنية ، وضرر الصحف التي لا تعرف غير الهدم ولا تحسن البناء أكثر من نفعها .

كما ضعف عدد الأميين زاد قراء الصحف ، وعقد الرجاء على صدورها آخذة بنواصي الكمال من حيث مظهرها وصدق لهجتها وسرعة أخبارها وتنوع ابحاثها ، حتى لتغدو مدرسة يطالع بها القاريء كل يوم ما ينير امامه سبل الحياة .

مطالعة جريدة راقية مدة من الزمن تقرب العوام من مرتبة الخواص في التفكير الصحيح ، فتتعذر بعدها مغالطتهم في الحقائق الراهنة .

النقد حياة المجتمعات ، وبه ارتقى الشعر والنثر ، وبه ارتقت الخطب والتأليف ، ولا يخاف النقد الا ربّ العلم الضعيف .

لا يكتب التوفيق لكل من يتحدث الى الناس الاّ على الندرة ، المحدث كالخطيب لا يصفق له تصفيق استحسان الا اذا أبقى في نفوس السامعين أثراً تهز تفننه أوتار قلوبهم .

تحرص المدارس على تكثير سواد الطلبة في صفوفها ، وعلى تخريج أكبر عدد ممكن من حملة شاداتها ، ولو عقل بعض التلاميذ الذين أدوا فحوصهم بمشقة كبيرة حتى انتقلوا من صف الى صف الى ان انتهوا الى مدرسة الحياة ، لانصرفوا لاتخاذ اسباب للمعاش أقرب الى نجاحهم ، من خدمة تحتاج الى علم غزير ، وقريحة وقادة ، ودؤوب مطرد .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

شهدت في ستين سنة من تبدل في هذا العالم ما لم تشهد الانسانية مثله في قرون ، وقد مرَّ بي أكثر ما عاينت كما تمر الصور المتحركة على الشاشة البيضاء ، رأيت كل مدهش وغريب وما غيرت رأيي في ذكاء البشر وبلاهته ، وفي صلاحه وخبثه ، وكان الخبيث أكثر من الصالح ، والمتوحش لا يزال كثرة .

عهدت رجالاً ظهروا فجأة في عالم الشهرة ، واقتربت منهم أمعن في حالهم ، فاستبان لي انهم دون الوسط بعقولهم ، وأقل من الوسط بمعارفهم ، سادوا وليس لهم من أسباب السيادة شيء يذكر ، فصدق عليهم ما وصف به ڤولتير احد مواطنيه يوم قال : انه كان قائداً وما مست يده سلاحاً طول حياته ، وكان عضواً في المجمع العلمي ولم يمسك القلم بيده . في كل مصر وعصر مزيفون خداعون .

من اقتصد ساعة من وقته كل يوم يصرفها فيما يعود عليه بخير ، يأتي في بضع سنين ما يسمو به على الأقران . وقتك حياتك فلا تصرفه الا فيما يفيدك .

تعوذ الغزالي من نصف فقيه ونصف متكلم ونصف طبيب . فعلينا ان نتعوذ من نصف سياسي ، ذلك لأنه يفسد اكثر مما يصلح ، وقد تهلك على يديه أمته ، وهو يحسب انه يخدمها .

ليت شعري هل استحق المشاهير شهرتهم ، ام كان للزمن والبواعث دخل في استفاضتها . وما زلت أعتقد ان في الخاملين المغمورين من يوازون المشهورين النابهين ان لم يفوقوهم .

اجتمعت الى علماء وأدباء كانوا بعلمهم وأدبهم دون شهرتهم ، واجتمعت الى جماعة منهم كانوا أكبر مما يقدرهم الناس ، تتوقف الشهرة على أمور كثيرة لا على العلم والأدب فقط .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أليس من عيوب الحضارة الحديثة ألا تتوصل بعض الممالك الى الاحتفاظ باسعار حاصلاتها الا من طريق اتلاف الزائد عن حاجة الأسواق ، فقد أتلفت هولاندة مئات الألوف من البقر والخنزير ، وجعلت كندا من حنطتها وقوداً للقاطرات . وقطعت البرازيل مئات الألوف من أشجار البن وذلك بجوائز وضعتها حكومتها لمن يقوى على قطع تلك الشجرة المباركة . وفاضت حاصلات الولايات المتحدة من الحبوب والبطاطا وغيرها فنصح بعضهم لحكومتها ان تبيد جزءاً منها لتحافظ على السعر الذي يرضيها .

مالك النفوس عن دراسة علوم الدين ، وكانت تدرس قديماً بعناية فائقة ، ذلك لأنها لا تؤدي بصاحبها الى الظهور ، على خلاف الفقه امس والحقوق اليوم .

احرص على ان يكون أكثر عشرائك أكبر منك سناً وأوسع علماً واختباراً ، فالمرء يتعلم من الكبير اكثر مما يتعلم من الصغير .

قلائل من يقولون الحق ولو على أنفسهم ، اذا ظفرت بطائفة منهم اتخذهم عشراءك ونصحاءك ، فمشرتهم تطيب ونصحهم ينفع .

لا تحسد امرأً الا على علمه وعمله ، واجتهد في السير على الطريقة التي سار عليها العالم والعامل .

قلّ ان اقتصد رجل فندم ، وقلما أسرف انسان بماله وصحته الا حزن وأسف .

ما أعظم المدى بين قرية أهلها جهلاء ، وأخرى جميع أهلها متعلمون .

اذا امكن أن تبيضّ بشرة الزنجي اعتقد ان طبع اللئيم يتبدل .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

اقتصد في كل شيء الاقتصاد المعقول ، وليكن اقتصادك من وقتك بالغاً حد التقتير .

كم في اكواخ الفقراء من النساء والرجال من هم اليق بسكنى قصور الأغنياء لو أنصف الدهر .

ليس من الغلو ان يقال ان بعض المستعربين من علماء المشرقيات عرفوا الاسلام واكبروه اكثر مما عرفه بعض أدعياء العلم المشار اليهم بالبنان بين أظهرنا ، ذلك لأن معرفة الاسلام متوقفة على الدرس ، والمستعربون يدرسون على الأصول اكثر من بعض من تمحضوا للعلم عندنا .

أبشع ما أتت به النظم الغربية ما يدعى بالطريقة القرطاسية اي تطويل المعاملات ونقلها من ديوان الى آخر حتى يستوثق صاحب الشأن ان القضية المعروضة لم يدخلها زغل . بالطريقة القرطاسية لا تنحل مسألة في أقل من بضعة أسابيع او بضعة اشهر ، وبالطريقة العادية يبت بها في ساعة .

كان يكتب لنا التوفيق لو اقتبسنا من حسنات المدنية الغربية أكثر مما أخذنا من سيئاتها . السبب في تأخرنا عن الغربيين اهمالنا التفكير زمناً في كل ما يدفعنا الى الأمام . أبطأنا وما حدثتنا انفسنا من أول جيل بالأخذ بالمدنية التي ظهرت اعلامها في الغرب بعد عصر النهضة .

اقرأ بتدبر كل يوم صفحات من كتاب جيد للقدماء أو المحدثين وذلك بصوت جهوري ، ويكون في الموضوعات التي تأخذ من نفسك ، وبهذا تزيد رأس مالك الأدبي والعلمي من دون كبير عناء وتدخل السرور والسلوى على نفسك .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أليس من النقص ان تمضي السنة ولا يظهر في الأقطار العربية كتاب فيه شيء جديد ؟ وما كان بعض ما يصدر من المطبوعات مما لا قيمة له الا لأن من وضعوها لم يفكروا كثيراً قبل ان يقدموا على تأليفها .

لو عرضت جريدة اسماء المخترعين في العالم هذه الأيام ما سقطنا فيها على اسم مخترع عربي ، وهذا مما يخفض الرؤوس ولا يرفعها .

منذ مائة سنة كان العرب من احط الأمم فحدث لهم ما نبههم من رقدتهم ، وتقدمت مصر ثم تبعتها الشام فتونس فالعراق وتلقف بعض أهلها ما بنوا به بنيان مدنيتهم الجديدة ، مضافة الى ما كان عندهم من بقايا مدنية قديمة . ولو وازن المنصف بين أمس العرب ويومهم لأيقن أنهم تقدموا تقدماً ما كان يرجى منهم ان يبلغوه بهذه السرعة . ولو قد بعث عربي فارق الدنيا منذ مائة عام وطاف اليوم ديار أمته لرآها تبدلت بأوضاعها ومصانعها ومرافقها ، وأهم ما تبدل فيها طرق تفكير اهلها واحاديثهم وملاهيهم واندیتهم وأطعمتهم وأشربتهم .

محمد كرد علي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net